اجتهادات
تراتبيةُ أم قُطبية؟

أصبحت كلماتُ القُطب والأقطاب والقُطبية شائعةً فى دراسات النظامين الدولى والعالمى. ربما يعودُ الولع بها إلى اعتقادٍ شائع فى أنه لا يوجدُ نظامُ دولى بدون قُطبٍ أو أكثر. والقطبُ كلمةُ عربية قديمة تُستخدم حديثًا Unipolar الإنجليزية. فيُقال Pole كترجمةٍ لكلمة للإشارة Bipolar بمعنى نظام قُطب واحد، و System للدلالة على نظام Multipolarإلى نظام القُطبين، و متعدد الأقطاب.

غير أنه عندما نعودُ إلى يدايات النظام الدولى الحديث فى أوائل القرن التاسع عشر بُعيد الحروب النابليونية وعقد مؤتمر فينا، نجدُ أن استخدام كلمة القطب تأخر نحو قرنٍ ونصف القرن، وارتبط بالنظام الثنائى الذى تبلور خلال العقد التالى لانتهاء الحرب الثانية. وارتبط استخدامها بطبيعة هذا النظام، لأن وجوده أدى إلى استقطابٍ دولى,

إذ سعت كلُ من القوتين المنفردتين بقمة العالم إلى استقطاب دولٍ أخرى0 وكان هذا الاستقطاب أحد أهم العوامل المؤثرة فى حركية (ديناميكية) النظام الثنائى وتفاعلاته. ولذا كان استخدام كلمة القطبية مُتسقًا مع نمط توزيع القوة فى تلك المرحلة، وهو ما قد لا يكونُ كذلك فى غيرها.

لم تُستخدم كلمةُ القطبية فى المرحلة الطويلة التى يُشار الآن إلى النظام الدولى خلالها بوصفه متعدد الأقطاب. وهو كان كذلك فعلاً، لكنه كان يُسمى طول تلك المرحلة نظام توازن القوى، وليس تعدد الأقطاب. وظل مفهومُ توازن القوى هو المُستخدم للدلالة على النظام الدولى الانتقالى فى مرحلة ما بين الحربين، وصولاً إلى الحرب الثانية التى وُضعت بذورها فى تربة هذا النظام خلال مؤتمر باريس 1919.

ليس ضروريًا، إذن، استخدامُ تعبير القُطبية ومشتقاته فى كل دراسةٍ عن النظام الدولى. فالتنافس الدولى اليوم مثلاً يُظهرُ وجود عدة مراتب تبدو المسافةُ بينها أقل نسبيا مما كان يفصل واشنطن وموسكو عن بقية العالم. تحتلُ

أمريكا والصين المرتبة الأعلى، وتليهما أوروبا وروسيا واليابان والهند، ثم دول صاعدة عدة. ولهذا ربما يكونُ تعبيرِ التراتبية أكثر فائدة من كلمة القُطبية التى قد تصبحُ نافعةً مرةً أخرى إذا تفاهمت أمريكا والصين على ترتيباتٍ تؤسسُ لنظامٍ ثنائى جديد.